

كرونوتوبيا الصحراء وتشكّل الشخصية الروائية

Desert chronotpe and the character statut

المسعود جوادي*

المركز الجامعي بآفلو-الجزائر Djouadi.messaoud@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019-09-29 تاريخ القبول: 2019-10-16 تاريخ النشر: 2020-06-30

ملخّص: تهدف هذه الورقة مقارنة رواية الصحراء، من خلال الأثر الكرونوتوبي الذي يعمل على توجيه سيرورات السرد. وقد تم التركيز على مظهر من مظاهر التأثير الذي تمارسه الصحراء على الشخصيات الروائية، ومآلات التطور الذي تعرفه الشخصية في تفاعلها مع الفضاء. وللوقوف على أهم تفصلات هذه الرؤية كان لزاما البحث عن معالم تصورات الفضاء الصحراوي من وجهة نظر مدونات مختلفة لتأسيس المهاد الذي عرفته هذه الصورة وتقاطعاتها مع مسارات الثقافة الإنسانية. فالمقاربة تنطلق من الإشكالية الأساسية التالية: ماهي أطر وأشكال مسارات التطور التي تعرفها شخصية رواية الصحراء؟ ولمعالجة هذه الإشكالية تم الاعتماد على روايات مختلفة المشارب، بتعدد انتماءات أصحابها. وتم تحديد فضاء جغرافي مشترك يتقاطع جزئيا أو كليا مع فضاء «الصحراء الكبرى».

كلمات مفتاحية: الرواية، الصحراء، الكرونوتوب، الشخصية، التطور.

Abstract: This article aims to approach the desert novel through the chronotropic effect that guides narrative processes. The work focus on the influence that the desert exerts on the fictional character and his evolution influenced by interaction with space. To know more details of this vision, we have to look for the characteristics of perceptions of the desert space from the point of view of different corpus to establish the conceptions of this image and its intersections with the paths in human culture. . This approach revolves around the following fundamental

* المؤلف المرسل

problem: What are the frameworks and forms of development defined for the character of the desert novel? To discuss this issue, it was necessary to rely on novels of different writers, with multiple affiliations. A common geographical space that crosses partially or totally with the "Sahara"

Keywords: novel; desert; chronotope; character; evolution.

مقدمة: يعتبر الفضاء واحدا من المكونات البنية السردية المتعارف عليها. فهو يشكل الحيز الذي تدور فيه الأحداث المتوالية التي تؤلف الحكاية. تقدم الرواية الفضاء من خلال الأوصاف التي يتشكل من خلالها، ويأخذ أبعاده التي تمكن المتلقي من تصور تخيلي لمجريات السرد الروائي. يقيم تصور الفضاء في ذهن المتلقي نوعا من التعاقد الذي يجعل من الرواية ومن خطابها " مستساغا ومقنعا" في آن واحد، بفضل الانخراط الذي يبديه المتلقي حين يُقبل على قراءة العمل الروائي.

الصحراء في تراث الرحالة: تتعدد الفضاءات السردية تنوعا كبيرا يرتبط بسعة الرؤى والأنواع السردية التي تؤطر الأعمال الروائية¹. تعتبر الصحراء فضاء طالما شغل تفكير الإنسانية مسببا للخوف والكآبة حيناً، لما يحمله المخيال العام من قصص وروايات الفقد والفاجرة التي ألمت بالعديد من رواد هذا الفضاء ومرتاديه من المغامرين والرحالة والسائحين بين أرجائه، بل وحتى الأدلاء المهرة كانوا من بين ضحاياه². ونجد نفس الفضاء، الصحراء، يبعث في نفوس البهجة والسكينة وراحة النفس وخصوبة الفكر والخيال أحيانا أخرى³. يقصد بالصحراء في هذه المقاربة الجزء الجغرافي المعروف بالصحراء الكبرى، الممتدة عبر شمال إفريقيا من المحيط الأطلسي على البحر الأحمر، وهي التي كانت تعبر قوافل الرحالة والحجاج المتجهين نحو الشرق والتي ارتبطت رحلاتهم أساسا بأداء فريضة الحج. يقدم «العبدري»⁴ توصيفا للهواجس التي تنتاب المسافرين عبر هذا الفضاء بقوله:

«أوليس من الأمر الخارج عن كل قياس، أن المسافر عندما يخرج من أقطار مدينة فاس، لا يزال إلى الإسكندرية في خوض ظلماء، وخبط عشواء لا يأمن على ماله ولا

على نفسه، ولا يؤمل راحة في غده إذا لم يرها في يومه وأمسه، يروح ويغدو لحما على وضم، يظلم ويجفى ويهتضم...».

صورة لا تقتصر على الخوف من الأهوال الطبيعية بل تتعداها للخوف من ذلك «الآخر» ساكن الصحاري والبادي المقفرة، خوف يصرح به العديد من الرحالة سواء كانوا شرقيين أم غربيين عبروا المناطق التي تكون الفضاء الصحراوي، فيعبر أحدهم، في أثناء عبوره لبادية الشام الفاصلة بين العراق وسوريا، «وهانحن الآن نتوغل في الشامية، تلك البادية الشاسعة حيث لا يرى المسافر غير الرمال. إن مجرد ذكر اسم البادية يثير الخوف والهلع في نفوس أفراد القوافل خوفا من قطاع الطرق والاعتيايلات المستمرة...»⁵ في موقف مشابه لحالة الترقب لم تستطع «إيزابيل إبرهاردت»⁶ أن تتبين مشاعرها التي قالت إنها ليست الخوف بل هي نوع من القلق الذي جعل تخيلاتها مضطربة، تعبير يدل على تأثير الرؤية التي تحملها المغامرة التي عرفت باسم «سي محمود».

تتكون لدى العامة صورة نمطية للصحراء تقوم على أساس من المقولات التي تُروى عن الصحراء باعتبارها مكان للجذب والقفز والموت عطشا، وأن العيش فيها ضرب من المحال، أو أنه يتم وفق قدرات خيالية لساكنيها للتأقلم مع معطيات الفضاء الطبيعية. صور لا يكذبها الواقع؛ لكن المدونة الأدبية، والرواية بوجه خاص، تجعل من الصحراء فضاء مختلفا، تمنحه من سمات الشعرية التي تضيف عليها من سمات المخالفة للواقع إبهارا للمتلقي، وهذه إحدى سمات الجمالية في الأدب المرتبط بالصحراء. تبقى صورة الفضاء، أي كان هذا الفضاء، والصحراء عموما محكومة بالرؤى المركزية التي تؤطر رؤية المؤلف والشارد للعالم.

مكونات الصورة النمطية للصحراء: يستفاد من كتابات الرحالة منظومة من الأوصاف، إضافة لما سبق الإشارة إليه، والتي عززت وشكلت المنظور الجماعي للإنسانية في تصور الفضاء الصحراوي وخصائصه التي بقيت متداولة، باعتبار الدور التعليمي والريادي للرحلة لنقل صورة «الأخر» وفضاءاته. تقوم تصورات الرحالة للفضاء المرتحل إليه على جملة من المرتكزات التي تجسد أنماطا من التوجهات التمركية القائمة على حوارية بين خلفيات ثقافية يتسلح بها الرحالة في مواجهة منظومات العيش والتفكير والمعتقد للمجتمع المرتحل إليه.

تشكل الشساعة والاتساع والخلاء أهم القيم الصحراوية التي تشكل معالم الصورة النمطية لهذا الفضاء. وهي القيم التي انبهر بها الغربيون عند خوضهم لتجربة الارتحال عبر الصحراء، خاصة رحالة القرن التاسع عشر. تقدم «إيزابيل إبرهاردت» في ساعة غروب تاركة الصحراء وراءها باتساعها وامتدادها وقد بدأ يلفها الظلام⁷، وهي صحراء ارتبطت بها الرحالة المغامرة لدرجة أن بيتها لن يستطيع تعويض «صحراءها، أفقها الواسع المتموج...»⁸. وقريبا من هذا التصور يصف «أوجين فرومونتان» «تحت مسمى الصحراء [تجد] منبسطات تلي منبسطات: منبسطات رتيبة، مستنقعات، منبسطات رملية، أراض جافة تتخللها الحجارة، منبسطات متموجة والحلفاء...»⁹

يضيف «فرومونتان» بحسّه الفني للصحراء سمة الوهج المتألق والمبهر لضوء الشمس، المصاحب للتنوعات اللونية «شيئا فشيئا، تبينت هذه المدينة المائلة [لونها] إلى السواد، وهذا الأفق المستوي، وهذه الوحدة المتوجهة، وهذا الفارس الأبيض على جواده الأبيض، وهذه السماء الخالية من السحب؛ ثم وقعت عيني، المتعبة من الضوء، على البقعة المعتمة من الظل المرتسمة بين قوائم الحصان...»¹⁰. الضوء قد

يكون ذا حيوية خارقة¹¹، كما قد يسبب وهج الشمس نوعا من العمى المؤقت، إذا تزامن التطلع للمناظر المشرقة مع هبوب نسيم محمل بلهيب حرارة الصيف¹².

تتشكّل الصورة النمطية للفضاء الصحراوي من مكون «فانتاستيكي»، تعود جذوره لمدونة الشعر العربي العائد لفترة الجاهلية، ممثلا في وجود قوى خفية تملأ الخلاء والفيافي ممثلة في عوالم الجن. والناظر في قصائد العديد من الشعراء يجد إشارات لهذه القيمة المتأصلة في تصوير الرحلة الصحراوية.

فلأعشى:

وَيَهْمَاءُ تَعْرِفُ جَنَاتَهَا *** مَنَاهِلُهَا دَائِرَاتُ سَدَمَ

وله أيضا:

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة *** للجنّ بالليل في حافاتها زجل

وقال طرفة

وركوب تعرف الجنّ به *** قبل هذا الجيل من عهد أبـد.

نكتفي في هذه العجالة بهذه المقتطفات من المدونة الشعرية الجاهلية، ظاهرة تتقارب الرؤى النقدية العربية القديمة على أن السبب الرئيسي لها هو التوحش والمخاوف المتولدة من الوحدة في الفيافي¹³.

نقل المستشرقون عن المدونة الشعرية العربية وآراء النقاد القدماء مقولات الصحراء الغرائبية خاصة المتعلقة منها بالغيلان والعزف الذي تورد الأخبار سماعه، أو حتى مقابله، من قبل المرتحلين عبر الصحراء. مقولات أسهم بتناولها عبر المؤلفات المرتبطة بالبحث الاستشراقي الرصين. فعلى صفحات «دائرة المعارف الإسلامية» التي اعتنى بتأليفها كبار المستشرقين وأشرف على إدارة العمل بها أعلام المدارس الاستشراقية. يصادف الباحث مداخل مواد معجمية موسوعية تتعلق بتيمة «العزف

'azf' أو الغيلان أو الجن كمخلوقات عبية تقيم في القضاء الصحراوي مشكلة مكونا أساسيا من مكونات الصورة الذهنية للصحراء. يذكر «شارل بيللا Ch. Pellat» في تعريف الغول على أنه «مخلوق غريب يسكن المناطق الخالية من الصحراء، يتشكل في عدة صور، يستدرج المسافرين (بإيقاد النار ليلا كما يفعل البدو عادة في المناطق المرتفعة)»¹⁴.

نتبين من خلال ما سبق الطرق وإمكانيات اطلاع الغربيين على منظومة فكرية وثقافية كانت تسود بين العرب سكان الصحراء، فأغلب مناطق العالم العربي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالصحراء وبالبدو. صور نقلها البحث الاستشراقي عملت على تعزيز التصور الذي يذهب إليه النقاد في الدور المحوري للحركة الاستشراقية في رسم معالم الصور النمطية حول الشرق وقيمه.

الفضاء الصحراوي الروائي إخراج جديد: تحاول هذه المقاربة البحث في معالم الصورة التي تتشكل عبر المدونة الروائية للفضاء الصحراوي. ولهذا الغرض وقع الاختيار على مدونة محددة من الأعمال الروائية التي تتصل اتصالا وثيقا بالصحراء، باتخاذها فضاء تدور فيه الأحداث. انطلاقا من إدراك اتساع الموضوع وتشعبه فسيتم الاقتصار على جانب واحد من جوانب دراسة الفضاء الروائي. يتعلق هذا المحور حول العلاقة التي تربط الشخصية الأساسية للرواية بالفضاء الذي يُتخذ ظرفا لمتواليات الأحداث، والقيم الدلالية لهذه العلاقة.

تم اختيار المدونة التي تشكل سندا للمقاربة وفق معايير يستلزم توضيحها قبل البدء في خوض رحلة القراءة والاستكشاف. فالمعيار الأول كان متعلقا بالجنس الأدبي، ممثلا في الرواية. احتكم في هذا المعيار إلى عتبات النصوص المختارة، فالتوسيم الذي يحمله الغلاف يعتبر علامة تصنيفية، وهو الأمر الذي تقرره المقولات النظرية للنقد الأدبي. أما المعيار الثاني فيتعلق بالمضمون ويتمثل في بنية السرد

الذي يعد «الفضاء» أحد مكوناته، فالفضاء في المدونة المختارة يجب أن يشكل وجهاً من أوجه التشابه، الضابطة.

المعيار الثالث أن يحيل النص الروائي على فضاء صحراوي يتقاطع في عوالمه المحتملة التي يولدها في ذهن المتلقي على الفضاء الجغرافي الصحراوي المعروف بـ «الصحراء الكبرى» والتي تدل عليها في المقابل الترجمة الأجنبية كلمة «Sahara» بالحرف الاستهلاكي الكبير. اعتماد هذا المعيار يكشف لنا رؤية العالم التي توطر العمل الروائي. فالصحاري متعددة في العالم ومختلفة منها الحار ومنها البارد جداً، موزعة على قارات الكرة الأرضية. لهذا كانت المدونة المختارة تشير إلى معالم محددة من هذا الفضاء المشار إليه، وليس شرطاً أن تمتد الأحداث عبر الفضاء كله بطبيعة الحال فلا يمكن فرض معايير مسبقة على الإبداع الفني. تتقاطع المدونة الروائية والرحلة بل تتربطان ارتباطاً وثيقاً، يمنح هذا التعلق للنص الروائي حيوية تنعكس في شكل سيرورات متنامية للأحداث وتنوعاً، مفترضاً، في الشخصيات.

وقع الاختيار على ثلاثة أعمال روائية، لكتّاب مختلفين، منهم الروائي الجزائري «رشيد بوجدر» والثاني الروائي الليبي، المقيم بسويسرا، «إبراهيم الكوني». أما الثالث فهو الروائي البرازيلي « باولو كويليو». تحاول المقاربة من خلال تنويع المشارب التي تشكل المدونة الوقوف على وجهات مختلفة، وبالتالي تنويع مصادر التجربة الروائية تنوعاً يخدم التصور القائم على محاولة الإحاطة بثيمات رواية الصحراء. ففي حين يعتبر الروائيان العربيان، بوجدر والكوني، أقرب للفضاء الصحراوي؛ يُتصور أن يكون البرتغالي «كويليو» أبعد مسافة عن الفضاء المستهدف. وعلى الرغم من كون الروائيين العربيين يعتبران قريبين من موضوع الصحراء، إلا أن كلا منهما يقف على مسافة منها تختلف عن الآخر، فالكوني تعتبر الصحراء مكوناً من مكونات

هويته، لانتمائه لطوارق ليبيا، أما «بوجدرة» فكونه نشأ بقسنطينة وعاش معظم حياته بعيدا عن الصحراء، فالمسافة بينه وبين الفضاء الصحراوي تبدو مسافة معتبرة.

وصف المدونة: يتمثل العمل الأول في رواية «تيميمون» لبوجدرة. رواية تدور أحداثها حول سائق حافلة للسياح عبر الصحراء تهدف للوصول إلى واحة من واحات الصحراء، واحة تدعى «تيميمون». في أثناء الرواية/ الرحلة «يكتشف» السائق / بطل الرواية وساردها، المرأة وبالتالي يتعرف على تجربة جديدة. الرواية صدرت أثناء الفترة التي توصف بـ «العشرية السوداء» بالجزائر، فقد ضمنها الكاتب مقاطع متعددة لما كان متداولاً من أخبار العنف عبر وسائل الإعلام المختلفة. تضمين يفترض أيعزز من انخراط القارئ وانغماسه في أجواء العمل الروائي.

تدور أحداث رواية «الخسوف»، العمل الثاني المختار للمقاربة، في صحاري ليبيا، اعتماداً على العلامة المحلية على مسميات من مناطق وقبائل ومدن، ترتبط بالفضاء الممتد عبر الجنوب والجنوب الغربي للليبيا. تعكس أحداث الرواية العلاقة بين الإنسان وبيئته الصحراوية التي كثير ما تفرض ظروفها على الإنسان نمطا معيشيا يصعب الألم معه. تتجسد أطوار الحكاية ومجرياتهما من خلال العلاقة المضطربة بين البطل الشاب ومهرية، حيوان يمثل الثروة والضرورة التي لا ينفك ابن الطوارق عنها، بل تتلازم ثنائية الرجل وجمله لتكوين صورة «الرجل الأزرق».

ثالث الأعمال يعتبر ترجمة للرواية الأصلية للكاتب البرازيلي، الصادرة باللغة البرتغالية في نسختها الأصلية، تحت العنوان «OALQUIMISTA». استعيض عن النص الأصلي بترجمتين للرواية إحداها باللغة العربية، ترجمة «بهاء طاهر» تحت عنوان «السيمائي، ساحر الصحراء». تحسبا لما قد تُحدثه الترجمة من انزياحات تقرضها اللغة تم اللجوء للاستعانة بترجمة فرنسية للعمل بعنوان «L'Alchimiste». يتضح من خلال عناوين الأعمال العناء الذي تطرحه الترجمة فالعنوان العربي كان

بحاجة لزيادة نص فرعي عن النص/ العنوان الأصل لتفادي الوقوع في اللبس الذي تحمله الدلالة المرتبطة بالمقابل المفترض تجاوزا «الخيמיائي»، بل استعاض المترجم بالسيميائي الذي يدل على الدور الفعلي للشخصية الرئيسية للرواية، بسعيه لقراءة العلامات التي يصادفها في طريقه بحثا عن كنزه الموعود.

«تيميمون» صحراء التداعي: تتميز رواية «تيميمون» بكونها من السرد المتماهي مع مدونات السير الذاتية. أسند دور السارد للشخصية الرئيسية التي تتحدث بضمير ال «انا»، ممثلا بالسائق/ الدليل السياحي الذي يصطحب مجموعة من المسافرين للصحراء في رحلة سياحية. رحلة يقودها السائق عبر صحراء غير واضحة المعالم مختلفة عن الصحراء التي اعتاد القارئ لأدب الرحلة مواجهتها. فالمؤشرات التي ترتبط بالعالم الواقعي، والتي توظف عادة في النصوص السردية لمساعدة المتلقي على بناء فضاء تخييلي يمكنه من إبرام تعاقد خطابي مع الخطاب السردية؛ فباستثناء واحة تيميمون» أو «قمم الإيسكرم» أو «دير بني عباس» أو «كانتيدرائية المنبعة»، تبدو الصحراء نوعا من «تراكمات حجرية غريبة وكثبان رملية رهيبية وجبال نثة وهشة وأنقاض متراكمة ومتراكبة، تملأ الفضاء وتعمره إلى حد خلق نوع من الهيجان الجيولوجي فيحول الصحراء إلى شيء ملموس، خام وأساسي».¹⁵

صحراء الرواية متعددة المظاهر، تختلف باختلاف بؤرة الوصف وزمنها «الصحراء -ليلا- عبارة عن تظليل رهيب. نوع من الحلم اليقظ. في الصحراء، يفقد الإنسان إحساسه بالواقع».¹⁶ لا يمكن للقارئ الوقوف على وصف للصحراء، فالرواية تورد جملا مختلفة من المواقف والرؤى المتباينة لتوصيف هذا الفضاء «ذلك أن الصحراء قارة بأكملها. قارة باردة حيث الشمس حارة [...] لأن الصحراء وعرة خاصة عندما يعبرها المرء على متن حافلة قديمة الهيكل ورهيبية السرعة...»¹⁷. تتوالى أغلب

مقاطع الوصف الفضاء من خلال رؤية السائق/ السارد، القابع خلف مقود حافلته، التي تحمل ذكريات قديمة تكشف جوانب من سيرة السارد ونفسيته.

تتعمق المسافة التي يحاول من خلالها السارد إثارة المتلقي، بحركاته الأكروباتية، من خلال التأرجح في السرد المتقاطع بين سرد مجريات أحداث الرواية، باستخدام زمن الحاضر واستدعاء الذكريات الماضية بأسلوب التداعي الاستذكاري للحوادث والمشاعر التي ترسم بشكل مندرج شخصية السارد وتكشف أعماقه النفسية، ممثلة في عقده وهواجسه بشكل يكتف من غموض هذه الشخصية. ينظر السارد إلى الفضاء الصحراوي من خلال زجاج النافذة، فتظهر صور الصحراء لوحات مرسومة تتعاقب بتعاقب الرحلة. تخلق هذه المناظر دينامية الرواية وتدفعها قدما في زمن الحاضر.

يسفر هذا التقاطع بين السرد الاستدعائي والمحاكاة لحركة الراوي الارتحالية عن قيم نفسية ترتبط أساسا بالزمن. فالزمن الذي يؤطر السرد هو زمن يستشف من خلال النصوص التي تحدث الانقطاعات المتضمنة في صلب النص، والتي تتناقلها وسائط خارجة عن السرد ممثلة في مصادر الإعلام، ناقلة أخبار أحداث العنف الدموية. تمثل هذه الوقفات السردية إضافة لدورها المرجعي المرتبط بخطاب الرواية الحجاجي، إطارا يعزز كرونوتوبيا الصحراء. تتعمق وفق هذا المنظور أبعاد الفضاء الصحراوي ليمنحه دور الفاعلية في توجيه مسار السرد المتمحور حول شخصية السائق والتحويلات التي تعرفها عبر سيرورة السرد وتناميته.

تعرف الشخصية الرئيسية في رواية «بوجدر» تحولا جوهريا تبقى الشخصية نفسها مذهولة أمامه. يتمثل زهول السارد المتحدث من خلال ضمير ال «أنا»، في عدم قدرته، أول الأمر، على تقبله «وأجبرني هذا الجو الثقيل [...] على أن أغوص في عالم مرضي لم أكن أعرفه من ذي قبل. وقد اكتشفته أثناء هذه الرحلة عبر الصحراء وأنا عاشق...»¹⁸. بل يتطور إحساس الشخصية الرئيسية إلى الشعور بنوع من الغير

الناجمة عن تحول نفسي عاطفي «منذ أن سقطت في حب «صراء» لاحظت أن نظرتي تغيرت فأصبحت خبيثة ومنحرفة، فيها نوع من المكر والكراهية. لم أكن لأملك مثل هذه النظرة من قبل أبدا!»¹⁹.

يقف القارئ على سمة الترابط بين شخصية السائق، الذي يمثله صوت الراوي في الرواية وبين الشخصية الأنثوية ممثلة في الفتاة، في آخر الرواية التي تعد نهاية للتجربة العاطفية التي عاشتها الشخصية الرئيسية بنهاية الرحلة الصحراوية المؤطرة للسرد في رواية «تيميمون»، نهاية تشبه نهاية حلم سعيد يستيقظ بعده صاحبه على آلام الواقع المرير. فالفضاء الذي احتضن التجربة المتضمنة في الحكاية كان هو المؤثر والمساعد على حدوث كل المنعطفات التي شكلت بنية السرد وحفزته، سواء على مستوى الفعل الاستذكاري الإسقاطي للماضي أو المحايث بتتابع تجربة اللقاء بين الشخصيات، أو بالزمن المضمن المعبر عن محاولة تجوز حاضر بقي مهيمنًا على الرواية، رغم الهروب من واقعه، فجعل الصحراء مكان مواز لمكان الغياب.

«الكوني» وقوانين الصحراء: تنتقل بنا رواية الكوني «الموسومة بـ «التبر» عبر فضاء الصحراء الكبرى، من منظور كاتب يعدّ ابن الصحراء، فأصول صاحب الرواية تعود إلى قبائل الطوارق الذين سكنوا الصحراء منذ عهد قديم. انطلاقًا من هذا البعد يمكن أن نتصور التجربة الروائية الصحراوية لدى «الكوني» على درجة من الاختلاف عن غيره من الكتاب. من المتعارف عليه في المؤسسة النقدية، سواء على البعد العربي أو العالمي، أن الروايات التي كتبها «الكوني» والتي تدور حول تيمة الصحراء تعتبر نقطة فارقة في الكتابة الروائية العربية.

تدور روايات «إبراهيم الكوني» الصحراوية في مجملها حول الارتباط بين الإنسان الصحراوي وفضائه المحيط به بكل ما يمثله هذا الفضاء، كالبينة وظروفها

القاسية، وبمعطيات الاتساع والسكينة والصمت المخيم على آفاق الصحراء المترامية الأرجاء. كما تنشأ علاقة وثيقة بين الإنسان والحيوان المستأنس لمجابهة قساوة الفضاء. تتمحور هذه العلاقة بين الرجل الصحراوي وجمله بشكل أساسي فقد يسافر المسافر من سكان الصحراء مسافات لا رفيق له سوى مطيته التي قد تصبح رفيق سفر أكثر منها مجرد وسيلة ارتحال، وتتمحور أحداث بعض روايات «الكوني» حول حيوان «الودان»، نوع من وعول الجبال الصحراوية. تبدو الصحراء مختلفة للناظر إليها من الخارج، سائحا أو رحالة غريب، عن رؤية ابن الصحراء الذي ألف مراس ظروفها القاسية.

تعد هذه الفكرة واحدة من عتبات النص والصورة التي تحملها صحراء «الكوني»، صورة تبعث الانبهار في نفس المتلقي وتستفزه للتخلي عن تصورات القبلية الساذجة «ألا يدري مولاي «أمناي» أني النقمت الوصية من ثدي الصحراء، ككل أبناء الصحراء، وتعلمت أن أقرأ في أفعالك بشارات يراها البلهاء بلاء ومكائد؟ هل تريد أن احداثك ببعض أفعالك التي يراها الأغيار شرا وخرابا في حين لا يصعب على الدهاة أن يقرأوا في الرسائل البشارة على عادة السحرة الذين لا يباليون بأجرام الخلق، ولكنهم يترصدون ظلال الخلق؟»²⁰. الصحراء شيء مختلف عما تنقلته كتابات الرحالة، شيء غامض إلا على ابن الصحراء الذي يعرف «قراءة» رسائله ويعرف كيف يتصرف معها.

تميل الروايات التي تتخذ من ثيمة الصحراء نحو البعد الفانتاستيكي. فتنخذ من مكونات الفضاء الصحراوي مخلوقات عجائبية. يتم استدعاء المكونات العجائبية التي تؤلف وتملأ العالم الصحراوي عبر تعالقها بالإنسان/ شخصيات الرواية؛ فقد تكون من حلال تماس حقيقي، وفق تصورات الثقافة السائدة، كما تتقاطع العوالم الخفية والظاهرة بشكل متعدد. تدعم هذه العلاقات الناشئة بين العوالم وجود نظام من

التصورات المنمطة للفضاء المتحدث عنه، صور تنتعش ضمن إطار حكاوي شعبي قديم. يسبغ هذا المخزون الحكائي الشعبي على الفضاء الصحراوي سمات أسطورية تنمي السرود الروائية الصحراوية وتثريها.

تقوم روايات «الكوني» على مبدأ وجوب احترام القيم الصحراوية من طرف البشر على قدر المساواة، بين أبناء الصحراء والغرباء، المر الذي يشعر المتلقي بحساسية التوازن الذي يحكم الفضاء الصحراوي، توازن قد يعرض من يعبث به لشور كبير لا قبل له بمواجهتها. يمتد مفعول الصحراء وتأثيرها ليشمل كل مكونات البيئة. يقع ضمن دائرة التأثير بالفضاء الصحراوي الإنسان، الذي تتخذ منه روايات الصحراء، التي يكتبها «الكوني» مرجعا لبنية السرد. توجه الصحراء الشخصية منذ الولادة وتختط مسار ديبها حبوا وتوجه حياتها وفق نواميس للعيش تفرضها على الجميع²¹. احترام قوانين الصحراء وأعرافها قد يكون أولوية من أولويات الإنسان ولو كان في ذلك عنت كبير، لأنه الضامن الوحيد لاستمرار الحياة في الظروف الصحراوية.

تحدث رواية «التبر» عن تجربة تظهر من خلالها السيورة التطورية التي تعرفها الشخصية في روايات الصحراء من خلال التجربة عبر الفضاء الصحراوي. ففي الرواية التي تسرد مجريات الأحداث التي تؤسس لتجربة شاب، من سكان الصحراء، مع حملته، الذي كان جملا مميّزا، ومآلات هذه العلاقة التي يصاب في بدايتها الجمل بمرض يجعله يشارف على الهلاك. فما يكون من الشاب، «أوخيد»، إلا الدخول في غمار مغامرة غير مضمونة العواقب، تضحية بنفسه لأجل إنقاذ جملته «الأبلق». توصف هذه المغامرة لمسار تحولي في بناء شخصية الشاب.

تبدأ من علاقة الإعجاب، والزهو المؤدي للغرور، بجمله الفريد؛ إلى خوض مجاهل مراعي صحراوية ترعاه عوالم الجن، حيث يختلط فيها ما هو واقعي

بالفانتاستيك. تسفر الرحلة عن شفاء الجمل بعد أن تنشأ علاقة جديدة من «الأخوة» التي تربط الفارس الشاب بمهرّيه، بعد أن تمازجت دماء الطرفين، امتزاجاً أسطورياً يفتح أفقا جديداً لبناء الشخصية ورمزيتها²². تنفتح عوالم الرواية وفضاءاتها بأزمנתها للتأسيس لمعالم كرونوتوبيا الصحراء، التي على الرغم من الصمت الظاهر بين جنباتها، تبقى رسائلها قوية الأثر في بناء وإتاحة إمكانيات التأويل السيميائي للشخصيات.

«باولو كويليو» الصحراء الساحرة أم السحرية؟: يقدم البرازيلي «باولو كويليو» الصحراء من منظور حكائي، يبدو قريبا من بساطة الحكايات الشعبية. تتمحور أحداث رواية «الخيميائي»، حول شخصية ساذجة تكلف بمهمة عادية، متداولة كثيرا، تتمثل في كنز مخبوء بالقرب من أهرامات مصر. تبدأ سلسلة الأحداث التي يعيشها الراعي الشاب، «سانتياغو» وشويهاته، من بلاد الأندلس حيث يرى حلما يدعو للتوجه بحثا عن كنزه قرب «الأهرامات». الغريب في الأمر أن هذا الشاب لم يكن يعرف معنى الهرم ولم يكن يعرف الصحراء، لكن الزمن الروائي سيعرف تحولا بدخول البعد الفانتاستيكي الذي يتحدد من خلال السعي لتفسير الحلم والذي يعقبه ظهور شخصية ملك يدعو الشاب لخوض مغامرته تحقيقا للحلم/ الرؤيا²³. تعترض طريق الشاب المغامر عقبات يعلن أمامها عن تخليه عن المهمة الموكلة إليه. تقوم مجموعة الفواعل السردية، بتعبير غريماس، على توجيه خطوات المغامر نحو هدفه على الرغم من الصعوبات التي تواجهه، عوامل لا يجد لها الشاب تفسيراً سوى كلمة «المكتوب»²⁴.

بتداخل العوامل الفاعلة في السرد تتميز سمة عوالم الشرق العجائبية المستوحاة من مدونات «ألف ليلة وليلة»، ممثلة لحضور «الشرق» في مخيلة الروائيين الغربيين. تتشكل سمات الآخر الشرقي من خلال نص الرواية بدءا بالرياح القادمة

من الجنوب الحاملة لرمال الصحراء لبلاد الإسبان، إلى اللص المخادع، والقبائل المتناحرة عبر الصحراء زارعة الخوف في قلوب المسافرين والرحالة، ولن تتوقف عند المرأة الحلم، بل تتعزز من خلال سذاجة الرجل الشرقي. هذه الروايات تشكل صورة الفضاء الذي يخترقه الشخصية الأساسية تحقيقاً لـ «أسطوره الخاصة». تغدو صورة الشرق صورة نمطية تتسجها وتوظفها المخيلة الغربية عبر النصوص الأدبية واللوحات الفنية.

تمر شخصية بطل الرواية، الشاب «سانتياغو»، عبر سيرورة تطويرية فيتحول من مجرد فتى راع، تستهويه مطالعة الكتب، إلى ساحر بارع يمكنه قراءة والتحكم في مكونات الطبيعة الكونية من صحار ورياح. فقد استحق لقب «ساحر الصحراء» بجدارته. نال الشاب شرف اللقب ومكافأة الكنز عبر عملية اصطفاء مرت عبر تجربة القراءة التي انتقلت من الكتب القديمة إلى قراءة حركة القافلة عبر الصحراء، وقراءة ظواهر تمكنه من التنبؤ بما قد يقع من أحداث وشيكة، فرسائل الفضاء الروائي كلها تتطوي على دلالات يمكن تأويلها. الخبرة التي اكتسبها «سانتياغو» جعلته يتفوق على من لهم باع في تتبع أسرار الكيميائيين التي تمكن من تحويل التراب إلى معادن نفيسة.

انخرط الشاب في رحلة قافلة الصحراء التي رافقه فيها رجل إنجليزي من المهتمين بالكتب الخاصة بالكيمياء، ومن سمات الرجل أنه معتد بمعارفه التي أراد أن يناظر فيها الفتى الشاب، لكن الشاب في سذاجة يتخلى عن هذه المعارف النادرة ويكتفي بما اعتاده من مكتسباته السابقة التي نالها من خلال قراءته لما كان يرعى غنمه «لقد تعلمت مع الشياه وتعلمت مع الكريستال، ويمكنني أيضاً أن أتعلم من الصحراء، فهي تبدو أعرق وأكثر حكمة»²⁵ فالصحراء فتحت آفاق المعرفة أمام «سانتياغو» ففهم

أشياء كثيرة لم يكن ليفهمها لولا هذه الرحلة، الاختبارية لقدراته، والتي تهدف لتأهيله لنيل صفة تتوج بتحقيق حلمه، الذي سوف لن يكون غير تحقيقه لذاته والبرهنة على قدرته على تحمل أعباء الاستحقاق، استحقاق الجزاء الموعود.

إن رحلة الصحراء كانت رحلة وتجربة لا يُقبل التراجع عنها، فالشاب لم يكن يملك خيار التخلي والرجوع على أعقابهِ. هذه الإمكانية التي تعيق الشاب وتقوده الخيار كانت واحدة من أهم تجليات مظاهر تحقق ما تم تداوله عبر النص الروائي، من تكرار لفظة «مكتوب»، التي تلخص نمطا من المعتقد المؤسس على سمة تصنيفية ترتبط بالشرق. تؤسس تكرارات هذا اللفظ لنوع من طرق التصنيف، فيتوارد هذا اللفظ على شفاه الشرقيين، ونطق الشاب به دلالة على تشربه للمعتقدات الشرقية²⁶، فهي تعبير عن انخراط في فضاء الصحراء الذي يرمز للشرق. هذه الأمور هي التي سنتوج في نهاية الرحلة بحصوله على المكافأة المادية، ممثلة في الكنز وعلى مكافأة معنوية بحصوله على الاستقرار من خلال شخصية «فاطمة» التي مثلت هدف رحلته للعودة إلى واحة «الفيوم» مرة ثانية.

خاتمة: تتشكل القيم الكرونتوبية للصحراء، التي وقفت عليها هذه المقاربة من خلال مدونة محددة من الروايات التي اتخذت من الفضاء الصحراوي مجالا لمجريات أحداثها، عبر شبكة معرفية ثقافية تؤسس لنظام تصويري واضح المعالم. لم تبق صورة الصحراء مجرد مكان، وحيز جغرافي، خال يسوده الصمت المطبق، يفتك فيه العطش والتهيه بالقوافل التي تعبده فحسب، بل صار ذا حمولة سيميائية وفاعلية سردية في توجيه مسارات تطور الشخصيات الروائية. تمارس الصحراء تأثيرها عبر فرض قوانينها وتأصيل قوتها الفاعلة في توجيه مصائر الشخصيات عبر فرض اختبارات اصطفاائية تمنح الناجحين في الامتحانات أهلا للحصول على المكافأة.

تعتبر فاعلية الصحراء في بناء الشخصية وسيروراتها، ضمن البنية السردية مؤشرا يمكننا اختياره معيارا لتحديد معالم «رواية الصحراء». يمكن إطلاق سمة رواية الصحراء على النصوص الروائية التي تولي عنايتها بالفاعلية التي سبقت الإشارة إليها في توجيه سيرورة السرد وتحديد مكانة الشخصيات الروائية. يندرج هذا المعيار ضمن ما تصوره الناقد الروسي «باختين»، جاعلا من القيم الكرونوتوبية القدرة على تحديد جنس النص السردية.

يتشارك الفضاء الصحراوي ومكوناته الطبيعية، النمطية، من اتساع وسكون وخلاء، مع تصور فني للزمن بافتراض إحساس مغاير لتبدل الظواهر ورتابتها، مؤداه إحساس بزمن تتجسد عبر البعاد الفانتاستيكية التي تجعل المتلقي في حيرة أمام سرود «روايات الصحراء»، حيرة لا يزيحها غير استشعار المحكيات التراثية والشعبية الخرافية، أو المقولات المؤطرة للمعتقدات والرصيد الثقافي المتمركز حول رؤى نمطية للعالم.

قائمة المراجع

1. إبراهيم الكوني. التبر. دار تنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط 3، 1992.
2. نفسه. الشرخ. ط 1. بيروت-لبنان: دار النهار للنشر، 1999.
3. نفسه. من أساطير الصحراء. تونس: دار الجنوب للنشر، 2006.
4. ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتيال طنجي أبو عبد الله)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، 1997، ج 4.
5. الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر). الحيوان. تح. عبد السلام هارون. مطبعة ومكتبة البابي الحلبي، 1965.

6. العبدري (أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود). رحلة العبدري. تح: علي إبراهيم كردي. ط2. دمشق: دار سعد الدين، 2005.
7. رشيد بوجدر. تيميمون. الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال للنشر والإشهار، 2002.
8. لطيف زيتوني. معجم مصطلحات نقد الرواية. بيروت-لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، 2002.
9. لوي جاك روسو. رحلة إلى الجزيرة العربية سنة 1808. تر: بطرس حداد، ط1. بيروت، لبنان: الدار العربية للموسوعات، 2010.
10. Ch. pellat , B. D. McDonald. Ghull in: The Ecyropaedia of Islam. The International Union of Academies. Leiden : E. J. Brill, 1986-2004. T 2.
11. Eugène Fromentin. Sahara et Sahel. Paris : Librairie Plon, 1887.
12. Isabelle Eberhardt. Notes de route, Eugène Fasquelle. Paris, 1908, p 46-47.
13. Paulo Coelho. L'Alchimiste. Anne Carrère. 1994.

الهوامش والإحالات:

- ¹ لطيف زيتوني. معجم مصطلحات نقد الرواية. بيروت -لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، 2002، ص 127.
- ² ابن بطوطة (محمد بن معبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي أبوعبدالله). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، 1997، ج 4، ص 242.
- ³ نفسه، ج 4، 243

- ⁴ العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود). رحلة العبدري. [المترجمون] تح: علي إبراهيم كردي. ط 2. دمشق: دار سعد الدين، 2005، ص 33.
- ⁵ روسو لوي جاك. رحلة إلى الجزيرة العربية سنة 1808. [المترجمون] تر: بطرس حداد، ط 1. بيروت، لبنان: الدار العربية للموسوعات، 2010، ص 107.
- ⁶ ينظر في: Isabelle Eberhardt. Notes de route, Eugène Fasquelle. Paris, 1908, p 46-47.
- ⁷ ينظر نفسه، ص 335.
- ⁸ نفسه، ص 347.
- ⁹ Eugène Fromentin. Sahara et Sahel. Paris : Librairie Plon, 1887, p 7.
- ¹⁰ المرجع السابق، ص 69.
- ¹¹ ينظر: نفسه، ص 48.
- ¹² ينظر: نفسه، ص 127-128.
- ¹³ ينظر: الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر). الحيوان. تح. عبد السلام هارون. مطبعة ومكتبة البابي الحلبي، 1965، ص 248-250.
- ¹⁴ Ch. pellat و B. D. McDonald. Ghull in: The Ecyropaedia of Islam. The International Union of Academies. Leiden : E. J. Brill, 1986-2004. T 2, p 1103.
- ¹⁵ رشيد بوجدر. تميمون. الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال للنشر والإشهار، 2002، ص 12.
- ¹⁶ نفسه، ص 33.
- ¹⁷ نفسه، ص 34.
- ¹⁸ بوجدر، المرجع السابق، ص 100.
- ¹⁹ نفسه، ص ص 104-105.

²⁰ إبراهيم الكوني. الشرخ. ط 1. بيروت-لبنان: دار النهار للنشر، 1999، ص ص 17 - 18.

²¹ -نفسه، من أساطير الصحراء. تونس: دار الجنوب للنشر، 2006، ص ص 25-26.

²² - نفسه، التبر. دار تنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط 3، 1992، ص ص 33 - 51.
²³ ينظر في:

Paulo Coelho. L'Alchimiste. Anne Carrère، 1994.p.23.

²⁴ Paulo Coelho. Op.cit. p 148.

²⁴ Paulo Coelho. Op.cit. p.130.

²⁵ Idem : p 102.

²⁶ Paulo Coelho. Op.cit. p.130.